الفصل الحادى والعشرون
ذكر أول من بنى قلعة مصر المحروسة
وجميع من أقام المبرات وكل الأبنية العظيمة فيها

إن أوصاف مصر ـ عمرها الله ـ مدونة فى الآلاف من كتب التاريخ ولكنى أنا أوليا الرحالة قليل البضاعة وكثير السياحة دونتها فى اختصار. ففى هذه الدنيا الفانية كم من دول بقيت، ومصر قدر ضئيل منها. وأول من بناها هو نقراوش بن غرباب بن شيث بن آدم وبعد الطوفان أعاد بناءها سيدنا حام بن نوح وابنه بيطر. وما بنى فى ذلك العصر هو مصر القديمة. وإن كانت مصر اسم جميع البلاد إلا أن اسم مصر أصبح علمًا لأن أحد بناتها نقراوش وقد سماه سيدنا آدم مصرايم ولذلك سميت مصر. أما اسمها الأول فى اللغة العبرية «مقدونيا»، وفى اللغة السريانية «افسوس»، وفى اليونانية «الفسطاط»، وفى اللغة القبطية تسمى «مصرايم»، واسمها بين الناس «أم الدنيا»، وفى اللغة العربية تسمى «القاهرة المعزية» لأن المعز لدين الله القاهر خرج من بلاد المغرب واستولى عليها عنوة قهرًا من أيدى الإخشيديين عام ٣٥٨. وكانت هذه المدينة فى الزمان الخالى عامرة وكان عمارها على شاطئ النيل بقدر مسيرة ثلاثة أيام. وقد اغتر فرعون بامتلاكه مصر وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] حاشا وكلا. وقد حارب سيدنا موسى عند موضع من بحر السويس يسمى مضيق «قولوندر» وقد غرق هناك وقد عصفت ريح قهر ببلاده وعرشه فى مدينة منوف ولهذا سميت القاهرة. وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين وعقدوا العزم على تعميرها وأعادوا بناء عرش فرعون فى منوف وهى مدينة صغيرة فى حجم القصبة.

وقد عمر الملك «طوطيس» وهو من أجداد الملك المقوقس مصر القديمة أى مدينة الفسطاط. ولما كانت فى حوزة القبط تحالف اليونان والفرنجة فى عام ٢١ وأثناء فيضان النيل المبارك استطاعوا دخول مصر فى ألفى سفينة شراعية من مضيق رشيد ودمياط وأغاروا على مدينة المنصورة حتى وصلوا إلى مصر القديمة ناهبين سالبين واستولوا على

عدة مئات من خزائن مصر، وساقوا القبط جماعات جماعات من الأسرى وكأنهم بحر وبسطوا سيطرتهم على مصر القديمة، وجعلوا مصر وقفًا على كنيسة آيا صوفيا، وأدى القبط الجزية للروم.

وفى الجانب الشرقى لمصر القديمة على بعد ساعة من جبل المقطم جبل الجوشى[1] وجبل بجايم وجبل تَقاطع والجبل الشرقى وجبل المقطب[2] أى جبل قطب الأقطاب وجبل لوقان وجبل حِجان. أما الناحية الأخرى من النيل فجبال الجبل الغربى وجبل جُزام وجبال الهرمين. وبين هذه الجبال المذكورة إلى بلاد الفونج والبربر والنوبة فطرفا النيل ضيقان. وبعض أراضى النيل فى صعيد مصر واسعة وفيها تجرى مياهه التى تأتى من جبال القمر فى الجنوب.

وعندما يصب النيل فى البحر الأبيض عند الجهة الشمالية فى فرع رشيد وفرع دمياط توجد كثير من الصحارى الواسعة وبها جبال لا تحصى كثرة.

ولكن الجبال الواقعة فى شرق مصر ومنها جبل المقطم وجبال الجوشى يصدان عن مصر ريح الصبا. وهذا الجبل حينما تكون الشمس فى الأفق يصد نورها عن مصر وبذلك تصبح مصر كأنها سرداب مظلم بعد طلوع الشمس بساعتين ولذلك أقام القبط فى هذين الجبلين مغارات سكنوها ثم بدأوا بعد ذلك فى تشييد مصر الحديثة ثم جاء إلى مصر ملوك الإسلام. وبعد عمرو بن العاص جاء بنو أمية وبنو العباس والفاطميون. وجملة القول أنه جاء إليها الملوك السالف ذكرهم ولم يرغبوا فى الإقامة فى مصر القديمة وقد عمروا جميعًا مصر.

أما أنا فقد أقمت اثنين وثلاثين عامًا فى بلاد سبعة عشر من الملوك وطوفت فى جبالها وتلالها، وكانت المملكة الثامنة عشرة والتى قدمتها هى بلاد الكعبة الشريفة وهى مقصد الناس كافة، ولله الحمد فى عام ١٠٨٢ حججت وطوفت. ثم قدمت مصر وكانت الدولة التاسعة عشرة ولله الحمد فقد أصاب سهم رغبتى غرضه، ودخلت القاهرة وذات يوم أردت أن أغير الجو وأستروح فأمسكت على عنان اختيارى وامتطيت

(١) وهو ما يُعرف باسم جبل الجيوشى.

(٢) أى: جبل المقطم.

المطايا وشاهدت مصر القديمة التى تسمى الفسطاط ومقدونيا ومصرايم وأم الدنيا والقاهرة المعزية وهى شوق الملوك وكانت قصتها فى الزمان الغابر حديث الأصدقاء وطبقت شهرة آثارها الآفاق.

حكاية مناسبة

وفى ذلك العصر سأل رحالة شخصًا قائلاً: يا أخى من أى بلد أنت؟ فقال الرجل خفيف الظل له: أنا مصرى، فقال: من أى حى فى مصر؟ فرد قائلاً: أنا من حى بغداد، فقال السائل: أيها الظريف إن بين مصر وبغداد صحراء تمتد مسيرة ثلاثة أشهر. فقال الرجل إن ما ذكرتُه هو الدنيا بل إن مصر أم الدنيا. وإن ولايات بغداد والبصرة واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان كل منها حى على أطراف مصر. حقًا إن ما قاله الرجل هراء.

فمما يروى أن خليفة بغداد كان يستمع إلى تاريخ مصر وعندما علم أن فرعون مصر ادعى الربوبية فقال: إن فرعون الذى يحكم مصر وهى فى حجم البليدة ادعى الألوهية ترى ماذا كان سيدعى لو أنه ملك بغداد التى هى جنة فى الأرض وقال إن مصر تعد حيًا من أحياء بغداد.

وبناء على تواريخ اليونان فإن مصر أول بلد على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين. وهذه المدن الأربعة تشكل السواد الأعظم من العالم ولكن مصر لوقوعها فى وسط الدنيا كانت عظيمة العمران. والآن ليس لها من نظير على وجه الأرض. إلا أنه فى عام ٩١٢ فى عهد الشراكسة بسبب عصيان جنودهم وطغيانهم وتمردهم سمحوا لهم أن يتجاوزوا الحد فى ظلمهم وأن يخربوا عمائرها وأسواقها فأصبحت مصر خرائب وتراب ورمال هنا وهناك. وأصبحت مصر القديمة مأوى للبوم والوطاويط. وبمرور الأيام والقرون أصبحت المدينة كأنها شيخ فى السبعين. ولسان حالها يتحدث عنها وكانت على نقيض ذلك من قبل فى غابر الأزمنة. وعلى شاطئ النيل وعلى مجرى السيل مدينة الفسطاط المسماة بمصر القديمة وكانت هناك قلعة عظيمة. وكانت مدينة هى نادرة الدهر وكم كان بها من خانات وحمامات تخربت

وانتقلت من يد إلى يد. وهى مدينة قديمة لـها أخبار وحكايات لا تنتهى. وأراضيها فى خارجها وداخلها مكتظة بالغرائب والعـجائب والطلاسم والكنوز والرموز وهـى أحسـن إقليم، وهـى كـثيرة الخيرات والقـرى وحدودهـا الجـنوبيـة تنتهى عند قـلعة صاى بعد أسوان على مسيرة عشـرين مرحلة وهى مشاع مع سلطان بلاد الفـونج وتنتهى حدودها الشمالية بقـلعة الإسكندرية على ساحل البـحر. وتنتهى حدودها من ناحية الـقبلة عند الكعبة. ويحدها من الغرب اوجله وهكذا هى بلاد تقع فى إقليمين.

وفى أرض مصـر هذه كنوز ودفـائن عظيـمة وخبايـا كثيرة. ولـقد جاء فى بـعض الروايات أن موضـع فيها لا يخلو من كـنز خفى. ولأن مذهب أهل مصـر أرضى فهم يدفنـون كل أموالهـم فى الأرض. وبما أنى مواطـن والى مصر كتـخدا إبراهيـم باشا، سكنتُ مع أغوات البـاشا فى برج واقع فى مكان يسمى «مرتع المـفلسين» وخرجت من مسكنـى فى السحر ووقعت فـتنة وشغب أمام مبنـى الجاويشية جرح فيـها عدة خدام. وسألت عن سبب ذلـك فقيل لى ربما عثروا هذه اللـيلة فى هذا المكان على كنـز وبينما كانوا يحـملون الكنز سـقط منه ذهب كثيـر على الأرض. وتصادف مرور خـدام التتار (ناقلوا البريد)، والحمّارة ولم ينالوا نصيبهم من الكنز فكان ذلك سبب العراك الذى وقع بينهم. وبمجرد أن وصلت فمماليكى كالذئـاب الجائعة جعلوا يبحثون بين الناس فوجدوا مائة وسبعين دينارًا من ذهب. وعدنا إلى مسكننا. ورأينا الكنز فى الصباح فوجدنا حفرة الكنز تتسـع لخمسة رجال وكان الكنز كنـزًا عظيمًا. ومن الحق قولنا أن لـيس فى مصر موضع يخلـو من كنز. وهذا الكنز كـان من الذهب الخالص. وكان كل دينـار منه يزن ثلاثة مثاقيل وكتب فى طرف الدينار الصلاة الـشريفة وكلمة الشهادة. وفى أحد جوانبه كتب اسم الخليفة المأمون ـ عز نصره ـ ضرب فى مصر.

وفى الجانب الغربى لمصر بعد النيل جبال جالوت وفيها المنارات التى تقاتل فيها داود مع جالوت، وتسمى هذه الجـبال كذلك جبل التقاطع وكذلك يسمـونها جبل الجُوشى. لأن الشيخ الجوشـى مدفون فى مسجد فى ذروة ذلك الجـبل. أما سبب تسميتـها بجبل التقـاطع أن هذه الجبال تقـطع القلعـة الداخلية لمـصر من داخلها ولـهذا سميت بـجبل

التقاطع. وتسمى كـذلك جبل بجاميم وكان يسكنه فى الزمان الخـالى قوم بجميم وهذا الجبل يمتد من مصر إلى طرفها الجنوبى علـى بعد مسيرة أربعين مرحلة من أسوان وتمتد سلسلة من الجبال بين جبال الأهرام وجبل المقطم ويمر من بين هذه الجبال نهر النيل.

إقامة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شادى الكردى

قلعة مصر

فى عام ٥٧٢ كان يوسف صلاح الدين وزيرًا للخليفة نور الدين الشهيد فى دمشق. ودخل الأسبان المـلاعين مصر من مضيـق دمياط فى وقت فيـضان النيل بألف سـفينة، واستولوا على المنصورة وبدأوا فى نهب وسلب جوانبها الأربعة. فتظلم خلفاء العباسيين من مصر نور الدين الشهيد فأمَّر نور الدين صلاح الدين يوسف على ثمانين ألف جندى ليدخل مصر ولما بلغ مـصر أباد الكفار جميعًا. ولأنه انتصر فى المنـصورة سميت المدينة بالمنصورة وكان اسمها قبل ذلك «ريحان» ثم خلـص دمياط وقلعة «التينة» من المغيرين. ولما قدموا مدينة مصر ساملين غانمين كانت الثورة تعم مصر ولما كان صلاح الدين رجلاً مسعودًا مدبرًا جعلوه خليفة عليهم. وسمع بذلك نور الدين فاستعدى صلاح الدين إلى دمشق فاختلق صلاح الـدين مختلف المعازير فلم يمض إلى دمشـق. ولم يضرب السكة ولم يـذكر اسمه ولا اسـم سيده فى دمـشق فى الخطـبة بل جـعل الخطبـة تتلى بـاسم العباسيين. وفى تلك المرة اشتد استياء نور الدين من صلاح الدين وهذا ما عرفه صلاح الدين ولشـدة مخافته منه أقام قـلعته الداخليـة حول القاهرة فوق جبل المـقطم، أحاط جوانب المدينـة الأربعة بسور طوله تسعـة وعشرون ألفًا وثلاثمائـة ذراع. وأنشأ مدرسة بالقرب من ضريح الإمام الـشافعى. وحارب كفار الفرنجة ثانية في مـرج العيون وانتصر عليهم. وفى ذلك الوقت توفى نور الدين الشهيد فى دمشق فأغار عليها من مرج العيون واستولى على جميع خزائنها وكنوزها وضم دمشـق إلى ملكه واستقل بمصر ملكًا عليها وانصرفت همته إلى تعمير مصر. حتى أصبحت مصر أم الدنيا كأنها عروس. وجاء بعد صلاح الدين سبعون ملكًا كذلك وكل منهم عَمّر مصر وهى الآن شوق الملوك.

وأنا أجرى على مصر أوصافها بناء على علمى بها والله المستعان.

أولاً: وصف قلعة مصر الداخلية

تقع القلعة الداخلية لمصر فى الجهة الشمالية من أنف جبل المقطم وهى قلعة جميلة على ربوة منتصبة. ومن جبل الجوشى إلى القلعة موضع للمدافع وما بينهما واد من مائتى ذراع فيه حفر وأحجار. وجميع من ينحتون فى الولايات ينحتونها مثل فرهاد ويحفرون الخنادق. وبين القلعة وجبل الجوشى أرض كثيرة الحجارة وعند حصارها لا يمكن اختراق حواجزها. وهذه القلعة الداخلية قلعة شامخة تبعد عن الجانب الشرقى للنيل ألف وخمسمائة قدمًا. (وجوانبها الأربعة شديدة الانحدار ذات صخور بيضاء) وباب جدارها ثقيل وبناؤها يرتفع ثمانين ذراعًا. وهذه القلعة التى أقامها صلاح الدين هى حصنه الحصين وسده المتين تسمى «زَرْ ابَاد» أى منجم الذهب. ويرجع السبب فى تسميتها بهذا الاسم إلى أنه حينما شرع صلاح الدين فى حفر أساسها رغّب إليه المنجمون أن ينثر الذهب فى أساسها وأن ينثر الذهب كذلك فى برجها.

وهذا ما ظهر لهم فى الطالع الميمون ولما نثروا الذهب فى أساسها عند بنائها سموها قلعة «زر اباد» بمعنى «منجم الذهب» وهذا ما ذكره جميع المؤرخين. لأن مصر منجم الذهب. ولقد بنيت القلعة على شكل مخمس بناء على ما أشار به علماء الفلك. ولأن الشكل المثلث لايخلو من الفتنة والفساد لأنه يجلب النحس. لذلك بنيت القلعة على شكل مخمس ولكن العبد يدبر والله يقدر، وشاء الله أن يكون بناؤها على شكل مخمس ولكن طالعها كان نحسًا. فما سكنت فيها الحروب والفتن فى كل عام. ومن باب مطبخها إلى برج أغا الانكشارية (يوجد خندق كأنه بئر). وأساسها بتمامه قائم على الصخر. ويحيط بالقلعة اثنا عشر برجًا وهذه الأبراج هى البرج الشرقى والبرج الغربى وبرج الأغا وبرج الباب والبرج المسطح وبرج الفرنجة وبرج صلاح الدين وبرج المعمار، وهذه الأبراج بديعة الزينة والزخرفة وكل منها يتألف من ثلاثة طوابق ويتسع كل منها لألف رجل. وكل برج من هذه الأبراج حصن قائم بذاته يتألف من ثلاثة طوابق، وفى أحد هذه الطوابق حجرات الانكشارية عند باب الشيخ سارى. وعددها

أربع وأربعون حجرة ولا وجود لشيء آخر ولها باب يطل على الغرب. وحجم هذه القلعة ستمائة قدم وعدد أسوارها ألفان وستون ويتصل بها قلعة داخلية أخرى. ويتوسط هذه القلعة جامع الشيخ سارى ومسجد الشيخ وزاوية الجاوش وزاوية الكتخدا وإدارة الأغا ومخزن البارود خانه ودار الضرب والطوبخانه ومصنع المركبات وحمام القلعة وثمانمائة بيت صغير قديم وسبعون دكانًا. ولهذه القلعة ثلاثة أبواب إحداها فى الجانب الغربى. وهناك بابان من طبقتين من حديد بين برجى القلعة، وفى الوجه الداخلى لهذه الأبواب مدافع من حديد طول الواحد منها ثلاثون شبرًا. وفى نهاية مصنع المركبات مدفع آخر. ويتصل بدار الضرب جدولان للماء وكل من فى القلعة فى حاجة إليهما. ولهذه القلعة باب يفضى إلى ميدان أغا الانكشارية ويطل على الناحية الغربية. وديوان جميع الانكشارية أمام هذا الباب، وله عتبة من القيشانى الصينى. وثمة باب آخر هو باب صلاح الدين وبينما كان يفتح فى الصباح كان يحضر جميع نوابه وبيت «المالجى» أى القائم على أمر بيت المال وجاويشيته الستة وجميع بوابيه وبعد دعائهم له يفتحون الباب، إنه يتألف من ثلاث طبقات من الحديد. وعند دخول القلعة بين هذين البابين على الجدار فى الجانب الأيمن، تواريخ الملوك السابقين على أربعة ألواح من الرخام والتاريخ فى أعلاها هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا السلطان مالك الملك العادل صاحب الدنيا المصرية والبلاد النامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والسد والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عزّ نصره سنة ست وتسعمائة).

وعلى لوحة رخامية أخرى تاريخ قايتباى. وعلى لوحة أخرى من الرخام تاريخ برقوق الذى دون سنة خمسمائة وستين. إن هذه القلاع الثلاثة المنفصلة قلاع صلاح الدين.

ولكن فى عهد السلطان سليم وزَّر أول ما وزَّر خيره بك وكان ذلك عام ٩٢٣ وقد دام حكم خيره بك خمس سنون وشهرين واثنين وعشرين يومًا وتوفى فى عهد السلطان سليمان وأسندت الوزارة إلى «بلاق مصطفى باشا» ثم أسندت إلى أحمد باشا الخائن. ولما شغل السلطان سليمان بحرب المجر اغتنم أحمد باشا الفرصة وفكر فى الاستقلال بحكم مصر وحشد حوله جميع الشراكسة الذين نجوا من حرب السلطان سليم وشق عصى الطاعة وأعلن التمرد والعصيان. ولما نمى الخبر إلى السلطان سليمان بعث إليه بجيش فى البر والبحر كما أرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا «المقتول» فى ثلاثمائة من سفن الأسطول العثمانى. ولكن جرى قضاء الله بألا يكون الحظ مواتيًا فاشتد عصف الرياح فاضطر الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الناحية البرية وحشد عتاده من جديد وعندما قدم مصر فى جيش عظيم أقام العدل فى الناس وأخذ على يد الظالمين. وعمت الثورة أعيان الديوان فى مصر وكذلك الأشراف وكبار الأعيان وقالوا: يكفينا ما أصابنا من بلاء فى حرب السلطان سليم ولا يجب أن نحارب من أجل خيانة أحمد باشا هذا. نحن لا نريده. وقبضوا على أحمد باشا الخائن وصلبوه على باب زويلة وعاد الاستقرار والطمأنينة إلى مصر.

أوصاف قلعة نارن والقلاع الأخرى

قدم إبراهيم باشا مصر وقد قال جلالى مصطفى چلبى تأريخًا: هو وزير عادل عمّر مصر، لكنه حكم سنة واحدة عام ٩٣١، وأقام قلعة إضافة إلى القلعة الداخلية. وهى الآن تسمى قلعة السلطان سليمان. والقلعة التى أقامها إبراهيم باشا تتوسط قلعة صلاح الدين وهى قلعة فخمة جميلة على شكل مربع، تزدان بها المدينة وهى تضيف للقلعة المناعة ومحيطها ثمانمائة قدم. وهناك برجان يطلان على الناحية الغربية وبينهما باب حديدى من طبقتين وفى ركن منها بنى برج شامخ من عشرة طوابق يشبه برج «غَلَطَه» ولا يستطيع مهندس آخر أن يبنيه، وهذا البرج كثير الزخارف وفى أركانه مزاغل، وقبته عظيمة الارتفاع مكسوة بالرصاص الأزرق ولا وجود فى هذا البرج إلا لمال السلطان وكله تحت الأرض. وما يحصله الدفتردار من مال يضعه فى هذا البرج.

وخارج القلعة لا وجود إلا لمقر محافظ القلعة والكَتخدا والإمام والمؤذن وزاوية ومخزن وصهاريج الماء ومقر محافظ القلعة من طائفة الانكشارية وهو فيها ليل نهار. وخارج خزانة البرج هذه بنى سور ركين للقلعة من طابق أمام جامع قلاوون. كما أقام على جانبيه برجين شامخين، وثمة برج عظيم هو برج المِهْترَخَانَه، وهو من عشرة طوابق، ويقيم بداخله جميع أفراد المهترخانه، وثمة برج آخر يطل على قصر إبراهيم باشا، وهو يسمى باسمه وهو برج متين ركين وطوله ألفا قدم. وثمة برج آخر هو برج المخزن وهو كذلك مواجه للقصر. وبرج آخر مسدس الشكل فوق بئر يوسف، وهو كذلك مواجه لقصر الباشا.

وجملة القول أنها سبعة أبراج قبابها مكسوة بالرصاص ولكل منها أربعون أو خمسون مدفعًا وكلها تطل على قصر الباشا حتى إذا أعلن أحد العصيان عليه أوردته مدافع القصر موارد الهلاك.

وبناء على هذا الإحصاء ينتهى الحديث عن القلاع المنفصلة ذات الثلاثة طوابق فى مصر.

ولقد حشد إبراهيم باشا فى هذه القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى انكشارى ورمم وأصلح حجراتها ودبر أمور مكة والمدينة وأحصى جميع أوقاف الله وأنفق المال السلطانى فى وجوهه وأسند وزارة مصر إلى «كَوزَلْجَه قاسم باشا» ومضى إلى الأستانة. وكان بين باب الوزير والقلعتين مسافة أقام فيها «كوزلجه قاسم باشا» سورًا وأنشأ باب قلعة ولذلك يسمون هذا الموضع «باب الوزير» وصنع بابًا حديديًا يصعد ويهبط بمائة قدم ويسمى «دَمِر قَپُو» أى الباب الحديدى. وعلى اليمين باب قلعة منفصلة من طابق واحد، والصعود والنزول يكون من بين أسوار القلعتين.. وثمة باب قلعة من طابقين من الحديد. يفضى هذا الباب إلى ميدان سوق القلعة. إنه ميدان وسيع وتقف فى هذا الميدان خيول أعضاء الديوان. وفى جوانبه الأربعة دكاكين وفى هذا الموضع سور قلعة من طابق واحد. إنه سور مزين مزخرف وله باب حديدى متين من طبقتين ويسمونه «طوب اتان باشا قبوسى» أى باب الباشا الذى يطلق المدفع. وهناك سور قلعة متين يقع بين برج «المِهتَرخَانَه» وجامع قلاوون ومنه تطل جميع المدافع السلطانية على الميدان.

وثمة قلعة من طابق واحد بها مقر أغوات الباشا ولا يسكنه أحد سواهم ولهذه القلعة طريقان رئيسيان أحدها فى ناحية «كسوه قبوسى» أى باب الكسوه والآخر عند ديوان قلاوون ولا طريق سواهما.

والقلعة ذات الطابقين لها أبواب حديدية كل منها من طبقتين عند عتبة العزب منها باب كبير يطل على «ميدان الروملى»* وجميع البوابين يقومون بالحراسة عليه. وما بين البابين مزين بالأسلحة والدروع.

ذكر قصر قره ميدان وطول وعرض قره ميدان

عندما كان خيره بك وزيراً لمصر أحاط «قره ميدان» من جوانبه الأربعة بسور.. وأنشأ فيه حديقة خاصة بالباشوات ولكن فى قديم الأيام كان قصر «قره ميدان» خاصاً بالسلطان قايتباى وهو الآن بستان من الأزهار والأشجار والنخيل. وكان الباشوات فى كل مرة ينزلون به ويلعبون الجريد وهو ميدان طوله ثمانمائة قدم وفى نهايته حجرات مرشدى الباشا. ولهذه القلعة كذلك من جوانبها الأربعة أبواب حديدية، والسلام.

وبذلك ينتهى الكلام جملة وتفصيلاً عن القلعة الداخلية. وعلى نحو ما أسلفت يكون للقلعة الداخلية بمصر ثلاث عشرة قلعة منفصلة. وعدد أبواب هذه القلاع المنفصلة تسعة عشر باباً والسلام.

ذكر طلاسم القلعة الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية سامقة ذروتها فى الأفلاك وفيها مكان مرتفع يسمى «مرتع المفلسين» وفيه برج عال يطل على مقر العزب. وقد سكنت هذه القلعة سبعة أعوام وكانت لى حجرة أعتزل فيها وأرى منها الدنيا. وتحت كوتى كانت توجد سجادة عليها كتابة وفى وسط هذه الكتابة صورة لطائر بقدر قدمين، وقد بسط جناحيه وله رأسان. وفيما كانت حجرتى ترمم ذات مرة خرجت من النافذة وجلست على ألواح الخشب (السقالة) ورأيت تمثالا من الرخام لطائر لا يستطيع مثال غير صانع التمثال أن يصنعه، وقيل إن تاريخ هذا التمثال يرجع إلى ألف عام. ومع ذلك فحجر التمثال ما زال أبيض اللون وقد لونه المثال فأضفى عليه جمالاً وكأن التمثال ذو روح وله رأسان يلتفت

* يقصد ميدان الرُميلة.

أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وصورة هذا الطائر على عملة فضية بولندية. ولا فرق بين الصورتين إلا أن الصنعة هى السحر المبين، وللطائر لسانان، فإذا عصفت ريح الشمال، خرج صوت حزين من لسانه فى رأسه الملتفت إلى الشرق وهذا صوت مخيف وهو صوت نسر. وإذا ما اشتد عصفها خرج من لسان الطائر الملتفت إلى الغرب صوت يثير الرعب وهو صوت اللقلق. أما اللسانان فى هذين الرأسين فأحدهما من النحاس والآخر من الصلب وقد نظرت فيهما وأمعنت النظر فوجدت أن طرف هذين اللسانين من الداخل يشبه السكين، فإذا عصفت الريح حركت اللسانين وكلا اللسانين يطلقان الصوت على هذا النحو فى الريح وفى غير ذلك من الرياح فصوته كصوت العقعق والعقاب. وتحت كل جناح من جناحيه ثقب وإذا ما أدخل الإصبع فيه خرج صوت مخيف وبطن الطائر كبطن رجل بدين وكأن تحت ريشه ثقبًا يتسع لليد. وفيه ورق يحمل خاتمًا يحمل صورة لجندب البحر. وإذا هبت رياح الشمال صدر منه صوت مهلك.

وبعض الأصدقاء سموا هذا الطائر «أوليا جلبى الطائر الذى حط». إنه على الدوام طائر مطلسم عجيب يستحق المشاهدة وهو ظاهر للغادى والرائح من باب العزب وهو معروف لدى أهل مصر جميعًا. وعلى رأس هذا الطائر كتابة من ثلاثة أسطر ولم أر مثل هذا الخط فى بلد من البلاد إلا فى بلغراد عند نهر الطونه على حافة حوض متروك فى خندق قلعتها ويقرر علماء مصر أن مثل هذا الطائر له صفير خاص لا عهد لهم به فى طيور مصر. إنه ليس طائر اللقلق فى مصر ما فى ذلك شك وليس البومة ولا الصقصغان ولا غيرها.. ويا لها من حكمة عجيبة.

طلسم العقرب

وفى القلعة التى سلف ذكرها عقرب إلا أنها إذا لدغت أحدًا لم يصبه أذى وبعد عدة ساعات يشفى من ألمه وهى طلسم ديوان السلطان قلاوون العتيق ويقع فى نهاية أربعة وأربعين عمودًا ولعلها كانت فى أسوان فى الربع المسكون وهذا الطلسم طلسم هذه الأعمدة.

وهو فى عمود على طرف مقر التتار وفى نهايته طوق حديدى وفى هذا الطوق الحديدى صورة عقرب من النحاس وهى معلقة من ذيلها وواقفة وهى الآن ظاهرة.

طلسم الثعبان

وأمام هذا العمود الذى يحمل طلسم العقرب عمود آخر عليه صورة ثعبان وعلى هذا العمود كذلك سطران من طلسم. إنه طلسم ثعبان ولا وجود لطلسم الثعبان الموجود فى القلعة الداخلية الخربة فى مصر فى قلعة شاه ماران. لكنه لا يصيب أحدًا بأذى بإذن الله - إنه حيوان مخيف.

طلسم الحية

وثمة عمود آخر فيه طلسم حية. وعليه كتابة مطلسمة من سطرين والآن لا أذى يصيب الإنسان من تلك الحية.

طلسم الحمى

حمدًا لله فما كان فى تلك القلعة الداخلية فى أى زمان حمى الربع أو الحمى المحرقة. وإذا ما سكن هذه القلعة محموم من بلاد أخرى ثلاثة أيام شفى بإذن الله. وفى نهاية باب «وفقى حلواجى محمد أغا» عمود عليه كتابة مطلسمة من ثلاثة أسطر.

طلسم القولنج

وهو مكتوب على عمود.

طلسم الطاعون

ينسبونه إلى ابن سينا. إنه رحمة داخل القلعة الداخلية لمصر وهو ليس خاصًا ببلد معين. فلا إصابة بالأمراض المختلفة مثل الإسهال وذات الجنب واللقوة والخرّاج. والطلاسم الموجودة الآن مستمرة المفعول ولله الحمد.. والأعمدة سالفة الذكر لكل منها عالم مطلع على أسرارها. ففى العمود الأصفر للقلعة طلسم للعبد الآبق. وآخر للص الهارب وطلسم آخر يشل يد العبد الذى يغدر بسيده. وثمة طلسم فى عمود لكى لا تزنى المرأة. وطلسم يحمى مدينة مصر من الحريق ولله الحمد فهذا الطلسم الأخير مستمر المفعول.

وطلسم على عمود به يهطل المطر أربع مرات فى الشهر، وطلسم لتسلم عيون الصبيان من الرمد.

وجملة القول أن لهذه الطلاسم طلاسم أخرى كثيرة تشبهها على كل عمود ولكى يتعرف بعض الملاعين من المغاربة والهنود والمجوس الباحثين عن الكنوز على موضعها من تلك الطلاسم التى على الأعمدة يبحثون عنها ويجذبون بعض الأعمدة بالوهق ويطرحونها على الأرض ويحكون هذه الخطوط أو الطلاسم بملح البارود والزئبق ويبطلون مفعولها فلا تظهر الكنوز ولا مال الدفائن وينسحبون خاسرين وقد نزلت بهم المحن والشدائد.

والآن منذ ذلك الزمان والبراغيث والقمل والبق يشوى أهل مصر اللهم عافنا ولا وجود فى بلد قمّل إلا فى مصر، وأهلها يكتبون رسائل استغاثة من القمل من بلاد إلى بلاد حتى أنا نفسى كتبت إحدى هذه الرسائل.

طلسم الكَلْبَين الكَلِبين

وفى مدينة مصر بين قنطرة الحسين وقنطرة الموسكى على الطريق الرئيسى حمام صغير يسمى «حمام الكلب». وفى أساس هذا الحمام قبة صغيرة بها تمثال لكلبين من النحاس وهما ليل نهار يعض أحدهما الآخر. ولا يسمع فى مدينة مصر أن فيها كَلْبًا كَلِبًا رآه أحد. ولذلك يعرف هذا الحمام بحمام الكلب وذلك مدون فى تواريخ القبط.

أوصاف قصر وزراء مصر

هذه القلعة كذلك متصلة بالقلعة الداخلية إلا أن أبوابها تختلف ومفاتيحها فى يد الباشا. ولقد أقام هذه القلعة والقصر يوسف صلاح الدين وكم من ملوك أضافوا إليها ملحقات فصارت قصرًا عاليًا كأنها قصر آل عثمان.

وأول أبواب الديوان باب «عَرْضحالجيلر» أى متلقو الشكاوى ويدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد دكاكين الخياطين على الجانبين، وبعد باب السبيل يدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد بابين وعلى الجانب الأيمن فى الطريق الخاص بمحافظ المدينة باب صغير وعلى جانبه الأيسر الباب الكبير للديوان. وبعد خمسين قدمًا فى ارتفاع

وانخفاض باب من طبقة واحدة بعده بعشرة أقدام باب آخر من طبقة واحدة وبعبور باب ذى طبقتين يكون الخروج إلى ميدان القصر وهو سهل واسع وهو ميدان محيطه ألف قدم وفى جوانب هذا الميدان الأربعة حجرات أغوات الباشا وجامع «دُهَيْشَة» فى هذا الميدان. وقصر رئيس الديوان وقصر «رئيس الذواقة» و«رئيس الخَزَنَة» كل هذه القصور جميعًا تطل على هذا الميدان. كما أن ديوان قايتباى وديوان الغورى وقصر «المُقابَلَه جى افندى»* و«البارودخَانَه» وقصر كَتْخدا البوابين والشطّار وحملة البنادق تطل على ميدان القصر هذا.. ويطل على هذا الميدان كذلك باب المطبخ المكشوف وبالدخول منه نواجه بقلعة من طابق واحد هى مطبخ «كِيكَاوسْ» وبالمرور من الباب الكائن فى ميدان على قنطرة وتحته منارة يتم الوصول إلى قصر المُطوّعة وهذا الموضع قلعة أخرى قائمة بذاتها. أما المطبخ فهو قلعة حصينة ولها ثلاثة أبواب وقد فتح البوابون هذا المطبخ للسلطان سليم. وبما أن السلطان سليم ورجاله دخلوا من هذا الباب سمى «باب السليمية».

ومنذ أربعين عامًا دفن أعرابى أعمى تحت هذا المطبخ وكان يقول: «سلطان سليم شُوىْ شُوىْ» وكان ذلك عام ٩٢٣ ولأبنائه راتب من الدولة وطعام دائم من مطبخ القصر، حقًا إن هذا لتاريخ عجب ويقول البعض إن هذا التاريخ جَفْر.

ولكن باب سليم هذا لا يستعمل إلا إذا مر الباشا إلى هذا الجانب أو أن يموت أحد الأغوات أو إذا جد أمر سرى فإنه يفتح.. إنه باب عظيم متين من الحديد، وفى قلعة هذا المطبخ مائة وخمسون مقرًا للطهاة وحمامات صغيرة خاصة وفى زواياهم أئمة مؤذنون. وما فى مطبخ الخليل هذا من النعم ما لم يشاهده بلد آخر. وجريًا على العادة يطبخ فى ثلاث قدور عظيمة ليل نهار الحساء وهو حساء العدس والأرز والقمح وتوزع على جميع الفقراء عدة آلاف علبة وقصعة من هذه النعم صباح مساء، إلا أن ذلك خاص بالفقراء وحدهم. وفى المطبخ مائتا موقد ويطهى عليها فى الأسبوع خمسة عشر ألف صحن. وهذه نعمة عظيمة تمنح فى ديوان الغورى للخواص والعوام ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ

* الموظف المسئول عن مطابقة المسودات والمبيضات فى المحررات أى المراجع.

فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] وكأنها مصنع عظيم به مائة طاهى. وإذا شاهدها الإنسان أخذ منه العجب كل مأخذ. ويتصل بهذا المطبخ خارج ميدان القصر مدافع البارودخانه التى تجرها الجياد وعددها أربعون من مدافع الهاون. وهى تعمل ليل نهار. والبارود المصرى أشد من البارود الإنجليزى. وفى الركن القبلى من ميدان القصر مخبز عظيم وله خمسون خادمًا ويصرف كل يوم عشرة آلاف رغيف تعيينًا.

وثمة قلعة منفصلة أخرى ناحية محافظ المدينة فى ميدان القصر، ولها ثلاثة أبواب وهذه الأبواب الثلاثة تحت السواقى. وثمة باب تحت مقر «الشُطّار» وباب آخر تحت مقر محافظ المدينة. وهذه الأبواب الخمسة أبواب حديدية متينة ذات سلاسل. وبين هذه الأبواب مقر وكيل الخرج وكاتب المصروفات وعدة دكاكين للخياطين والخلالين والسراجين. وناحية مقر الكتخدا منازل متصلة ببعضها البعض إلا أن ليس بها أسوار كأسوار القلعة إلا أنها تقع على سور قلعة قصر الباشا وهى قصر شامخ ولها حمامات وأحواض وشاذروانات وحجرات من القيشانى وحجرات للحريم. ويطل على ميدان القصر القاعة ذات الخزف الخاصة بإسماعيل أغا كَتْخُدا جَانْ بُولاَدْ زاده حسين باشا ولا نظير لنافورتها وحوضها.

أوصاف قصر وزير مصر

إنها دار للضيافة بقيت من عدة دول وهى مسكن لكل وزير بقدر ما يقدر له الله وكأنما هى عش للحمام. والقصر يقع على صخور منتصبة وهى أبنية مشيدة على سد عال متين يرتفع عن الأرض، وكل حجر فى بنائها فى حجم الفيل، وهذه الصخور أَمَر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وزيره قَرَاقُوش بإحضارها من جبل الأهرام بالجيزة وقد بنى بهذه الأحجار قصر القلعة وقناطر الجيزة وكان ذلك عام ( )[1] وبدلاً من أسوار قلعة القصر تقع طُنَفُ وكَوَّات ومقصورات وقاعات وكل خاناته تطل على الإمام الشافعى وجبل الجوشى وهذا الموضع الذى يسمى «القرافة الكبرى» وهى مقبرة عظيمة.

(١) بياض فى الأصل.

ويتألف القصر من ثلاثمائة وستين حجرة متعددة مزخرفة وكل منها أثر لوزير أو ملك أو سلطان. وإذا ما وصفنا كُلا منها طال بنا الكلام. ويتوسط القصر ساحة وسيعة وفيها يتدرب أغوات الداخل على التحطيب والفروسية والطعن بالحراب والمبارزة والرمى بالسهام وإطلاق البنادق واستخدام التروس والحراب. وعلى الجوانب الأربعة لهذه الساحة تقع حجرات أغوات الداخل وهى تتألف من طابقين أو ثلاثة. وكل كواتها تطل على الفناء. وتحت هذه الحجرات حظيرة خيل خاصة بالباشا ويقيم فى هذه الحظيرة أغوات الداخل من القائمين على رعاية خيل الباشا وعددهم عشرون من أصحاب المراتب. ويقيم فى هذه الحجرات كذلك الخَزِينه دار والمُهرِدار، وفى الداخل كذلك حجرة عرض الباشا وهى بناء قديم. أما البناء الذى هو ذهب فى ذهب فلقايتباى ونوافذه تطل على الإمام الشافعى وحجرة الخزانة متصلة بحجرة العرض هذه وبالقرب منها قصران للكتخدا إبراهيم باشا وهما يطلان على ميدان أغوات الداخل وهذان القصران يعجز عنهما الوصف أركانهما الأربعة من البللور والزجاج المعروف بالمورانو وهما يشبهان قصر الخورنق، وقد أرخ هو الحقير لهذا القصر الصغير، بهذا التاريخ: «قال أوليا تأريخه لهذا القصر، بلغ القصر المنيف تمامه سنة ١٠٨٣».

كما أرّخ رسمى داعى قائلاً: عندما رآه رسمى داعى لقصرجها منها قال: «إن تاريخ الانتهاء من قصر إبراهيم باشا عام ١٠٨٣»، وكان رسمى داعى من أغوات الداخل وهو شخصية عظيمة غزير العلم صائب الرأى متبحرًا فى العلوم والفنون.

ولما أنشأ سيدنا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة خاصة به لكى يتلو فيها الدوس، أرخت أن الحقير لهذا قائلا: «لقد أرح أوليا لهذا القصر، أن ثم بناء. هذا القصر العالى سنة ١٠٨١. وفوق هذا القصر قصر غازى باشا المعروف باسم جهان غا وهو مطل على جميع بلاد مصر «أى ضواحى القاهرة».

وبالدخول فى حجرة العرض نواجه بقاعة عظيمة يتناول فيها أغوات الداخل طعامهم والجوانب الأربعة لهذه القاعة مزينة الجدران من أعلى إلى أسفل بالقيشانى. وفى أعلى عتبة الباب لوحة رخامية مكتوبة بخط جلى مذهب تحمل تاريخًا هو:

(قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والأمثال سلطان سلاطين جهان حضرت سليمان خان عن سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والأقطار

الحجازية محمد باشا بن أحمد باشا أدام الله إجلاله إلى وقع التاريخ البنيان هو خير المكان سنة ٩٢٢).

وداخل هذه القاعة أمر سيدى جان بولاد زاده حسين باشا بإنشاء قاعة مزينة على الطراز الرومى تطل على الحديقة الداخلية. ولا نظير لهذه القاعة فى مصر. ولقد كتب الشيخ أحمد المالكى لها طلسمًا فلا يدخلها ذبابة ولا بعوضة، ويتوسط هذه القاعة حوض لطيف بداخله شادروان. حقًا إنها موئل فى قصر مصر.

وخارجها قاعة بيرام باشا وهى قاعة عجيبة فى تصميمها وكتب تاريخها على بابها بخط التعليق وهو:

إن حضرة بيرام باشا هذا . . زينة قصر الملك والدين
وفى مدة قصيرة صاحب الكرم هذا . . أقام هذا القصر اللطيف منقطع النظير
اقرأ الفاتحة لإتمامه . . ادخلوها بسلام آمنين ١٠٣٧

وفى ظهر الباب الذى كتب عليه هذا التاريخ تاريخ هو:

قال أحد عبيده تاريخ جميل تعالى الله حبذا هذا الطاق المفرح سنة (١٠٣٧).

وتحت حجرة بيرام باشا، ميدان واسع وفيه يتدرب أغوات الداخل على استعمال السلاح، وبالدخول من هذا الميدان نواجه بقاعة السلطان قايتباى. إنها قبة عظيمة الارتفاع وكل كَوَّاتها تطل على الإمام الشافعى، وداخلها حرم بداخله حجرات وحمام وشادروانات داخل هذا القصر حمامان علويان أحدهما خاص بالباشا وبه حوض جميل والآخر خاص بأغوات الداخل، ودكانا حلاق، ولأغوات الداخل رئيس للحلاقين.

وفى الجهة الداخلية من ميدان أغوات الداخل حديقة تمتلئ بالأزهار وفيها أشجار السرو والنبق والليمون والنارنج والسفرجل وأغصان عديدة من العنب على عروش وداخل هذه الحديقة الرائعة حوض عظيم للسلطان قايتباى يبلغ فى الطول مائة وخمسين قدمًا وعرضه ثمانون قدمًا. إنه حوض عظيم كأنه البحر الخضم. وعلى حافة هذا الحوض مقصورة صغيرة أنشأها إبراهيم باشا ليستريح فيها. وكان يضع فى الحوض من يودهم وينثر عليهم الدنانير.

وثمة حديقة أخرى تحت حجرة بيرام باشا وأصلها كان مزبلة فى ارتفاع المنارة ثم حوله إبراهيم باشا إلى حديقة كأنها بستان فى بلاد العجم أو إرم ذات العماد. ويبلغ طولها خمسمائة قدم وعرضها مائتا قدم وفى داخل هذه الحديقة مجلس تحت قمرية يتوسطها حوض عظيم. ومن هذا الحوض يتدفق الماء فى قناتين إلى حوض آخر وخرير ماء الحوض يصيب الإنسان بالرهبة. ومن الفوارة يتصاعد الماء إلى ارتفاع منارة. وعنب هذه الحديقة ليس كمثله عنب فى مصر.

وكان تحت قصر آخر بناه إبراهيم باشا حديثًا موضع للقمامة تحول إلى حديقة، وكى لا يبقى أثر لهذه القمامة جمع كل من فى مصر من زبالين وحمَّارة وحمَّالة وعمال أُجراء فحملوا منها مرتين فى أسبوع مائة ألف حِمْل جمل وحمار، وأقيم أمام هذا الموضع سد عظيم ومُهِّد سَهْلٌ وأمر سبعة آلاف وستمائة بستانى فى مصر بأن يزرع كل منهم شجرة، وفى ثلاثة أيام أُنشِأت روضة كأنها روضة مدينة أصفهان نصف الدنيا وإليها تدفقت المياه من الأحواض فأصبحت حديقة إرم ذات العماد تحيط بقصر مصر من جهاته الأربع. وتحت مخدع بيرام باشا سلم يخترق سور القلعة ويهبط إلى الحديقة ويبلغ طول هذا السلم مائة وخمسين قدمًا وهو من الحجر. وكان بيرام باشا فى شهر رمضان يتناول طعام الإفطار فى تلك الحديقة. ثم شُقّ منها طريق وأنشأت مقصورة فى ركن من أركان الحديقة تطل على ميدان «قواق» وكان جميع الجنود يسيرون فى هذا الطريق. وكان يكافئ من يطلق الرصاص أو يرمى السهام القرع. وميدان قواق هذا يبلغ فى الطول سبعمائة قدم وهو مفروش بالرمال. وقد ركز فى وسطه صارى سفينة وهو عال ضارب فى السماء وفى قمته كرة مذهبة وكان جميع الجنود يصوبون إلى هذه الكرة.

إنه موضع للفرجة ويطل على هذا الميدان قصر لمقصود باشا. والآن أقام «جان بولاد زاده حسين باشا» فى هذا الموضع عدة حجرات منقوشة وحمامًا لطيفًا، وجعلها دارًا للضيافة للقادمين والذاهبين إلى «الأستانة» وبيت الضيافة هذا مذهب.

أوصاف قاعة ديوان السلطان الغورى

إنها قاعة علوية للديوان تتسع لعشرة آلاف شخص. وقد كان بين السلطان الغورى والعجم مودة وأُلفة، وقد أرسل الشاه الخبيث النيّة إلى الغورى رسولاً واستمع إليه الغورى، لإكرامه جميع كل علماء مصر وتم بناء هذا الديوان فى ثلاثة أيام بلياليها، وحقًا إن هذا ليس فى قدرة البشر.

وجميع أبواب هذه القاعة وجدرانها مكسوة بالرخام. كما أن سقوفها تحوى رسومًا ونقوشًا وهى ذات ألوان مختلفة، وأرضها مفروشة بالرخام، وطولها مائة وخمسة وثمانون قدمًا وعرضها خمسة وخمسون قدمًا. وفى جوانبها الأربعة ثلاثة وثلاثون شباكًا من النحاس وست وعشرون بلورة من الزجاج وثلاثون صاريًا تصنع روافد عليها سقف من الخشب وليس قبة من الحجر. إنه سقف كثير النقوش الذهبية يبهر النظر. وللقاعة ثلاثة أبواب، وباب يفضى إلى الباشا، والثانى يهبط إلى الفناء بسلم حجرى من عشرين درجة، أما الباب الثالث فيفضى إلى قاعة الضيافة. ومنها يهبط بسلم حجرى ومن أحد جوانبها دهليز يطل على ميدان القصر وجميع (أقلام خليفه لرى) أى خلفاء الأقلام يجلسون فيه أيام انعقاد الديوان، ولفتح هذا الديوان أربع كوات وفى كل منها حبل غليظ فى بكرة. والجلادون يعلقون المدينين للدولة من الأمناء والملتزمين من أذرعهم ويضربونهم بالسياط حتى يردوا ما عليهم. إن هذا مكان مخيف للعقاب اللهم عافنا.

ونصف هذا الديوان مفروش بالبسط الحريرية وعلى البسط فرش الجلد الروسى ويتكوم على هذه البسط الدنانير الذهبية فى أيام انعقاد الديوان ويحصيها الصيارفة من اليهود. وفى نهاية هذا البساط على يسرة موضع السلطان سليم مجلس الوزير وفوق هذه الصفة بارتفاع قدمين لوحة تتضمن طغراء السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وهى مكتوبة بخط جلى مذهب وهو توقيعه المبارك وتسعة من تروس صنعت من خشب شجرة التين مع مدرة وهذه ما تتعلق بها هذه اللوحة. وعلى طرف رأس الباشا كتب

بخط غليظ قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. وهناك عدة خطوط علوية وسفلية متنوعة على رخام الجدران التى على يمنة ويسرة قاعة ديوان الغورى هذه.

وعلى لوح رخامى فى الأركان على يمنة ويسرة صفة الباشا خط كوفى بعلم الجفر لإخفائه عن السلطان الغورى ويشير هذا الخط إلى أن السلطان سليم سوف يقدم إلى هذا الديوان. وكأن ذلك سحر مبين وقد أطلعت على هذا الخط عدة مئات من أهل العلم فما استطاع أحد منهم أن يقرأ منه شيئًا لأن هذا الخط إنما يقرأ بالرموز. وفى المربع الذى على يسرة الباشا كتب على الرخام: «عزّ لمولانا السلطان» وعلى المربع الذى على يمنته كتب على الرخام: «سليم شاه خلّد ملكه» وهذا من العجائب.

وخارج هذه القاعة حجرة العرش، والباشا يسكنها أيام انعقاد الديوان ويلقى السمع إلى الشكاوى المرفوعة إليه. ولهذه الحجرة كوتان تطلان على ميدان القصر كما تطل كوتان أخريان لهذه الحجرة على قاعة ديوان الغورى.

مدح قاعة ديوان السلطان قايتباى

وخارج حجرة العرش هذه قاعة ديوان قديمة أقامها السلطان قايتباى وأرضها مرصوفة بالرخام الخالص ولها سقف ذو نقوش ذهبية يقوم على خمسة أعمدة من الرخام ودخول هذه القاعة من ميدان القصر يتم من خلال سلم حجرى من خمس وعشرين درجة. وفى هذه القاعة أكثر السلطان سليم من عقد الديوان وفى موضعه الآن لوح رخامى أخضر اللون على الجدار. وعلى الجدار كتب بخط غاية فى الغلظ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وعلى الجدار المواجه لهذا الخط كتب قوله ـ تعالى ـ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الاعراف: ٨٩]. إلا أن هذه القاعة أصغر من قاعة ديوان الغورى فطولها ثلاثون قدمًا وعرضها خمسة عشر قدمًا. وعلى نوافذها الثلاث وبابها تاريخ مكتوب هو:

(تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة). وجملة القول أنها قصر سلطانى عظيم

يعجز اللسان عن مدح صفاتها. ولديوان السلطان قايتباى مخزن للأطعمة يمتلئ بالمؤن ويصرف منه الوجبات لجميع الأغوات. وباب هذا المخزن كان مدخل باب الديوان فى عهد السلطان قايتباى.

ويدخل إلى هذا الديوان بسلم حجرى من ( )[1] درجة إلاأن طريقه مظلم إنه الباب القديم ويسمونه الآن باب الكلار أى باب مخزن الأطعمة. وعلى يمنة ويسرة هذا الباب تواريخ مكتوبة هى:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك للعبد فضل من الله تعالى وعزته عطايا بدوام مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين على العدل فى العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلّد ملكه بتاريخ شهر المحرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة).

وعلى يسرة هذا الباب مقصورة خضراء داخلها مجلس السلطان سليم وعندما دخل السلطان سليم من باب المطبخ وبينما كان يجلس فى ذلك الموضع أطلقوا ثلاث قذائف من مدافع القلعة الداخلية نحو السلطان سليم وكادت تصيب رأسه ومكانها ظاهر إلى الآن. وبالقرب من مواضع علامات هذه القذائف كتب فى دوائر ثلاث (لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى عزّ نصره). وبعد أن خاف السلطان سليم من قصف المدافع جلس تحت أعمدة مقر «الشطار» ـ أى من يتبعون ركاب السلطان ـ أسفل الباب الكبير لميدان القصر حتى ينجو من قصف المدافع وصلى ركعتين حمدًا لله. ومنذ ذلك الوقت والديوان يفتتح فى ذلك الموضع. وجميع وزراء مصر قبل الذهاب لآداء صلاة العيدين يعقدون الديوان فى هذا الموضع طبقًا لما جاء فى قانون السلطان سليم. وكل وزير لمصر قبل أى شىء يأتى إلى هذا القص، وبعد أن يترجل يجلس فى الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم حينما سقطت عليه القذائف ويدعو الله. وكذلك يدعو الله فى أيام انعقاد الديوان فى الأعياد. ثم يهبط سلمًا من خمسة وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى وهناك يدعو الله كذلك وعند انعقاد الديوان يبدأ وزير مصر بمعاينة

(١) بياض فى الأصل.

دفاتر ما يرسل إلى الحرمين من صرة وغلال لأنه خادم الحرمين الشريفين والسلام.

وفى ديوان الغورى سبع وستون أو سبع وسبعون إدارة لها دفاترها المفصلة والموجزة وهى محفوظة فى الخزائن. ومن بين هذه الدفاتر دفتر «الرُوزنَامجَه» وكذلك أكياس المرتبات التى يوزعها الدفتردار. وعندما يغادر الباشا القلعة أو القصر ينزل جاويش موكب الانكشارية إلى تلك الخزانة لحراستها ليل نهار ويتناوب على تلك الحراسة خمسمائة أو ستمائة رجل كما يحرسون كذلك جميع حجرات الباشا وأغواته ولذا يسمى انكشارية مصر «المُستَحْفظَان». وفى الجوانب الأربعة لميدان القصر هذا خمسة أبواب، واحدًا للمطبخ والثانى للديوان الكبير وهما أبواب من الحديد المتين ذو الطبقتين. وأمراء هذه الأبواب هم «آل ألواح» الذين سلموا مفاتيحها للسلطان سليم، والثالث باب محافظ المدينة. وكذلك باب «الكتخدا» وهو باب ذو سلاسل ويقع هذا الباب تجاه سجن «ارق خانه» وباب آخر بالقرب منه يهبط منه إلى الميدان وهو من الحديد. وباب آخر يفضى إلى «قره ميدان» وهو طريق حجرى فى ارتفاع وانخفاض وعلاوة على تلك الباب باب يسمى «باب الطلسم» وقد وادعى «دلى حسين باشا» أن تحته كنزًا وأطلق عليه المدافع وتركت فيه آثارها إلا أنها لم تلحق به ضررًا.

وثمة باب حديدى آخر يدخل منه وعلى بعد مائة قدم فى طريق يرتفع ثم مائة قدم أخرى فى طريق ينخفض يصل إلى «باب السرّاج خانه» وجميع سرّاجى الباشا وأغواته وقائدى الجنائب يسكنون داخل هذا الباب فى ثمانين حجرة للعمال. ويتوسط هذه الحجرات ميدان واسع. وبعد باب السرّاج خانه بمقدار مائة قدم فى أسفل باب الاسطبل «حجرة الهندى» بها نخلة سامقة وبعدها بخمسين قدم باب الاسطبل الكبير وفى هذا الاسطبل خيل الباشا وأغوات الداخل. وبعده بمائة قدم قلعة منفصلة يسكنها رؤساء الاسطبل والصراجون. وخارج هذه القلعة قلعة الميدان. أما قلعة الانكشارية الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة قره ميدان فمحيطها ثمانية آلاف وخمسمائة قدم ولا وجود لخندق يحيط بها ولكن ثمة خندق محفور فى الصخر طوله سبعمائة قدم بجانب «باب المطبخ». وفوق هذه القلعة الداخلية وقصر الباشا سبعون برجًا، ولكن قلعة «قره ميدان»

ليس لها أبـراج ولكن لها أربعة أبواب. ويفضـى إلى ميدان الروملى باب كبـير مكشوف يدخل كل مرة بسلسلة وهذا الباب متجه إلى الـنجم وبجانبه باب صغير، الفارس يجتازه بصعوبة وثمة باب آخر أسفل باب القصر هو «باب الإسطبل» وهو باب حديدى متجه إلى الغرب، وبـاب حديدى آخر فى أسفـل مقر المرشدين هـو «باب الزاوية» وهو متـجه إلى القبـلة، وعلى بعد عـشرين قدمًا مـن هذا الباب يقـع باب «القرافة» وهو بـاب حديدى مكشوف متجه إلى الشرق وفى هذا الموضع أكون قـد أكملت الحديث عن القلعة الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة «قره ميدان» ويكون عدد الـقلاع التى أحصيتها ثمانى عشرة قلعة قائمة بذاتها وعدد الأبواب طبق ما ذكرت سبعون بابًا من كبير وصغير، وهى موصدة فى كل ليلـة ولا يمر منها الطيـر فى طيرانه. ومفاتـيح القلعة الداخـلية للانكشاريـة تظل مع رئيسهم، ومفاتيح أبواب العزب مع رئيسهم كذلـك، وجميع مفاتيح قصر الباشا تبقى مع بوابى وكتخدا الباشا، وقد ذكرت جميع قلاع مصر الداخلية وسوف أتحدث عن مياه عباد الله والدواب فى القلعة الواقعة على الجبل المنتصب.

أوصاف سواقى بئر يوسف وغيرها من الآبار الأخرى

عندما بـدأ يوسف صلاح الدين فـى بناء هذه القلعـة كانت الحاجة ماسـة إلى المياه ولذلك جمع جميع المهندسين وحفارى الجبال وقـال لهم: ينبغى أن نجد منبعًا للماء فى هذا الجبل. وتشاورا فى الأمـر وأجمعوا على رأى وهو لا مناص من بئر لـهذه القلعة، وجاء الخبر بظهور ماء على عمق مائتى بـاع. وألح صلاح الدين عليهم إذا لم يستخرج الماء إلى هذه القلعة على أية حال فسوف يقتلهم كما يقتل من أجرموا فاجتمعوا وحفروا بئرًا لا نظير لمثلها على وجه الأرض. وبدأوا بحفر بئر مربعة وتم حفرها فى سبعة أعوام ومساحتـها مائة وخمسون ذراعًـا مكيًا، وليس لـها حبل ولا من يقدر عـلى جذب الماء منـها.. وحفر جـميع الحفـارين الأرض وجعلـوا ما حول الـبئر أشبـه شىء بالقـبور، وجوانبها الأربـعة طريق وفى كل طرف فتحـوا نافذة ويدخل النور من هـذه النوافذ إلى البئر وهذا الطريق يشـبه الطريق الذى يصعد منه إلى طوابق جامع آيـا صوفيا باسطنبول حيث يستـطيع ستة أشخاص أن يصعدوهـا وينزلوها فى سهولة ويسـر. وينزل إلى هذه

البئر ثلاثة آلاف قدم حتى يكون الوصول إلى مقر الشياطين. والجزء الأدنى مكان مظلم مخيف ولا ينبغى أن يبلغ هذا المكان الرجل الوهّام. ثم جعل صانع ماهر هذه البئر ثلاثة طوابق وجعل الطبقة السفلى منها ستين باعًا وشق مغارات فى أحد جوانب البئر، وفيها أقام دواليب، وزوجان من الثيران يسحبان الماء من القاع بالدوالـيب فتنصب مياه كمياه البحر عند هذا الموضع فى حوض كبير من الصخر. كما حفرت مغارات فى جانب آخر من البئر فى الطبقة الوسطى والعلوية. وتقوم أزواج من الثيران بسحب الماء من الحوض السفلى بالدواليب وتصب المياه فى الطبقة الوسطى، وفى أعلى أربعة أزواج من الثيران تقوم بسحب الماء من الطبقة الثانية من انخفاض ثمانين باعًا بالدواليب وتصب الماء فى حوض الطبقة العليا فيتوزع على المدينة ويصل الماء إلى معسكر الانكشارية، وحمام الطواشى سليمان باشا، والأحواض وبعض البيوت، إنها بئر تثير تذكر العبرة يسمونها بئر يوسف الصديق ولكن هذا خطأ لأنها منسوبة إلى السلطان صلاح الدين يوسف وليست منسوبة إلى يوسف الصديق، إن من يمضون لمشاهدتها يحملون الفوانيس والشموع وينزلون إلى نهايتها فى ساعة من الزمن. ولها مائة ثور، ولكل طبقة مغارات للثيران، والثيران التى فى نهايتها تعودت على البقاء فى الظلام وغيرها لا يتحمل ذلك لأنها لا تستطيع أن تتنسم الهواء فى كل وقت. أما الثيران التى فى الطبقة العليا فيسهل عليها أن تتنفس.

ويسكن الفلاحون الذين يديرون هذه السواقى فى طبقات هذه البئر الثلاث ويتسلمون رواتبهم من أمين الساقية. ومرتب الذين يعملون فى الطبقة السفلى أكثر من مرتب بقية الذين يعملون فى الطبقتين الأخريين، وثيرانهم كثيرة. وهذه الدواليب تدور ليل نهار ومن ينظر من أسفل البئر إلى أعلى فوهتها يرى أن الدواليب تدور كأنها الفلك.

وخلاصة القول أن من يسيح فى هذه الدنيا ولا يشاهد بئر يوسف لا يعرف ما فى الدنيا من صنعة ولا يعرف كيف أن الإنسان هو أشرف مخلوقات الله وكيف يستطيع عمل ما يشبه المعجزات، وعندما يشاهدها العارف بالله يقول: «إن همة الرجال تقلع الجبال». إن هذا الأثر يسمو إلى مرتبة الكرامة وهذا فى الحق ليس فى قدرة البشر. إن

ماءها أميل إلى الملوحة وأثناء محاصرة الغورى كان جميع منفى القلعة الداخلية يشربون منها. والآن بعض الناس يشربون من بئر يوسف ولكن لا حاجة إلى ذلك. ففى أسفل القلعة الوسطى سبيل ويستقى منه اثنى عشر ألف سقاء. كما يوجد سبيل على باب الأغا ومنه يستقى الماء أربعون ألف سقاء. وفى الشيخ «سارى» كذلك فى سوق القلعة الداخلية صهريج «اكوز محمد باشا» ويغترف منه الماء بمقدار عشرين ألف حمل جمل. إنه وقف عظيم وفى كل عام تحمل هذه المياه على ظهور الجمال وتمتلئ الصهاريج والحمام وصهريج فى وسط القلعة يقوم على مائة عمود وهو صهريج عظيم كأنه البحر. وعند الحصار يأتى من بئر يوسف والنيل مائة ألف حمل من الماء محملة على الجمال عدة مرات.

قناطر السلطان الغورى فى مصر القديمة وأعدادها

لم يكتف السلطان الغورى ـ رحمه الله ـ ببئر يوسف. وفى عام ٩٠٠ بذل همته فى توفير الماء لأهل القلعة الداخلية والقاهرة. ورصد من صُلب ماله ألف كيس من الدنانير حسبة لله، وأقام ساقية أمام جزيرة الروضة كأنها القلعة ويبلغ طولها ثمانين ذراعًا، ويسحبون الماء من الأرض إلى قمتها بالخيول، وتقوم الثيران بإدارة دواليبها من خمس جهات لتستمد الماء من النيل، ويصل الماء إلى الأحواض خلال القناطر ويبلغ سواقى القلعة الداخلية وتمر فى ثلاثمائة وثلاث عشر قنطرة ومن هذه القناطر ما تنخفض بمقدار ثمانين باعًا، ومنها قناطر يبلغ طولها خمسين باعًا فى بعض أجزائها. وفى أراضى منخفضة حوالى مائة قنطرة مسدودة الفوهات.

عدد دواليب ساقية قلعة قصر الباشا

يتدفق ماء النيل أسفل القلعة الداخلية من خلال هذه القناطر ويملأ الآبار العظيمة ثم تسحب السواقى الماء فى الآبار الكائنة أسفل قصر الباشا. ولقصر الباشا عدة سواق أخرى، وهى كذلك تسحب الماء. ويتدفق الماء من ساقية الباشا إلى الينابيع وحديقة أغوات الداخل والأحواض وينابيع الأسواق وعيون القلعة الداخلية. ولقصر الباشا ثلاث سواق تجلب الماء له من النيل. وفى قلعة القصر ساقيتين للنيل. إحداهما ساقية تحت

جوسق إبراهيم باشا والأخرى تجاه مقر محافظ المدينة. أما هذه الساقية ذات العيون الأربع فتجرها ثمانية ثيران، أما الماء الذى تسحبه سواقى الطبقة الوسطى فيتدفق إلى إدارة العزب والاسطبلات وبعض الينابيع. أما السواقى السفلية فماؤها أجاج وماؤها يمضى إلى بعض الجهات وتوجد ساقية خلف مقر مرشدى الباشا فى قره ميدان أى الميدان الأسود وفى حى رؤساء الإسطبل وعند جامع عمرو بن العاص، لكنها أعمق من السواقى الأخرى، هى ملك للحكومة. كما أن بئر يوسف، وجميع السواقى الكبرى ذات العيون الخمس، وسواقى مقر العزب، والطبقة الوسطى، وساقية قصر العزب التى يصل ماؤها إلى أساس جامع السلطان حسن ملك للحكومة كذلك. والحاصل أن عدد دواليب جميع السواقى ستة وثلاثون دولابًا وجميعها فى إحدى عشرة محلة. ولكن أكبرها فى مصر القديمة وقلعة الباشا.

وكل هذه الخيرات للسلطان الغورى وينفق عليها فى العام مائتا كيس ولها مائتان وخمسون ثورًا، ومائتا خادم وأمين ساقية وموظف جورباجى من فرقة الانكشارية، إنها خيرات عظيمة فليس فى مصر أعز من الماء لأن النيل يبعد عن القاهرة بمسيرة ساعة. ولكن لا نفع لمصر السفلى من مياه قناطر الغورى فجميع مياهها تذهب إلى القلعة الداخلية ولكن لا حاجة بمصر السفلى إلى مياه تلك القناطر لأن مصر السفلى تقع فى أرض منخفضة فتكثر الآبار فى كل منزل وسوق وقصر عالٍ.

بيان بجميع الآبار فى مصر السفلى

بينما كان بيرام باشا واليًا على مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع عام ١٠٣٧ أرسل السلطان فرمانًا إلى بيرام باشا وعلى بك الجرجاوى ورضوان بك أمير الحج أمرهم فيه على عمل إحصائية عن مصر. وبناء على إحصاء كمال باشا زاده ودفتر الغزالى قاموا بإحصاء كل ما فى مصر من عمائر وجوامع ومساجد ومدارس، وبعد أن عرضوا هذا الإحصاء أشاروا إلى قلة الماء وأفادوا أن فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ٢١٧٤ بئر و﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وماؤها جميعًا مالح وماء جميع

حماماتنا مالح ـ ولكن بئر الحمام القيسونى أسفل المدينة وسبعة آبار أخرى ماؤها هو ماء الحياة. هذا ما ذكروه فى تقريرهم وإحصائهم.

وحقيقة الحال أن مدينة مصر تقع على شاطئ النيل ذى الماء العذب، وأن يكون ماء جميع الآبار ملحًا أمر عجب وله حكمة غريبة «يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته».

والجو فى القلعة الداخلية يهب الروح والحياة لأنها مصيف وفيها تعصف الريح. ومياهها فى وقت الخماسين غاية فى البرودة. وإذا ما أراد بعض المرضى البُرْءَ من مرضهم غيروا مكانهم فجاءوا بهم إلى القلعة العليا فَتَصِحَّ أجسامهم بإذن الله فى عدة أيام. وللطف الجو تصبح عيون أولادهم مكحلة كعيون الغزلان، أما عيون أهل مصر السفلى فتشبه عيون الغول. تلك حكمة لله عجيبة.

* * *